الحضارة الإسلامية عبر العصور

إعداد
ا.د/ محمد نيسان سليمان مناع
أستاذ التاريخ الإسلامى
عميد كلية اللغة العربية بأسيوط

الحضارة الإسلامية عبر العصور

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبى الرحمة محمد ابن عبد الله رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ورضوان على آله وأصحابه وبعد ... ،

١ــ إن الإسلام هو الدين الذى أوحى به الله سبحانه وتعالى إلى نبيه ورسوله محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، حيث أنزل عليه القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، فهو رسالة السماء الخاتمة الجامعة لما فيه الخير والصلاح للإنسان ، فى دنياه وأخراه إلى يوم الدين فقد بعث محمداً ــ عليه الصلاة والسلام ــ رسولاً للعالمين ، ولم يبعثه لقومه العرب من دون غيرهم (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً)[١] (يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً)[٢] (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً)[٣].

وأكدت الرسالة الإسلامية على الوحدة الإنسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم ، (يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله

---

[١] سورة سبأ الآية ٢٨ .

[٢] سورة الأحزاب الآيتان ٤ــ٥ .

[٣] سورة الأعراف الآية ١٦٨ .

أتقاكم)[١] وقد بلغ النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ هذه الرسالة فى حجة الوداع ، فتلا الآية وقال ما خلاصته أن ليس لعربى على عجمى ولا لأبيض على أسود فضل (ولا العكس) إلا بالتقوى وهذه الوحدة الإنسانية تتضمن الدعوى إلى التآلف بالتعارف ، وإلى ترك التعادى بالتخالف .

٢ــ ولما كان الإسلام قد أوجب الإيمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله)[٢] وبين أن التفرقة بينهم فى الإيمان هى الكفر حق الكفر ، وأن الإيمان بالجميع بغير تفرقة هو الإيمان حق الإيمان فإن ذلك يؤكد تأكيداً قاطعاً على عالمية الرسالة الإسلامية ، ويثبت إنسانية هذا الدين وهذا كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا ــ مبنى على الإيمان بأن دين الله تعالى الذى أرسل به جميع رسله واحداً فى أصوله ومقصده من هداية البشر وإصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة ، وإنما كانت تختلف صور العبادات والشرائع بإختلاف استعداد الأقوام ومقتضيات الزمان والمكان حتى الرسول العام بالأصول الموافقة لكل زمان ومكان مع الإذن بالإجتهاد فى المصالح التى تختلف بإختلاف الأطوار والأحوال وقد انفرد بهذه الحقيقة العادلة للمسلمون من دون أهل الملل والأديان فقد كرم الإسلام بهذا نوع الإنسان ، ومهد به السبيل

---

[١] سورة الحجرات الآية ٤٩.

[٢] سورة البقرة الآية ٢٨٥ .

للألفة والأخوة الإنسانية العامة.

٣ــ وعالمية الإسلام تجعل الثقافة والحضارة الإسلاميتين منفتحتين على حضارات الأمم ، ومتجاوبتين مع ثقافات الشعوب ، مؤثرتين ومتأثرتين ، إن الإسلام ينكر (المركزية الحضارية) التى تريد العالم حضارة واحدة وتسلك سبل الصراع ــ صراع الحضارات ــ لقسر العالم على نمط حضارى واحد لأن الإسلام يريد العالم (منتدى حضارات) متعددة ومتميزة ولكنه مع ذلك لا يريد للحضارات المتعددة أن تستبدل التعصب بالمركزية الحضارية القسرية إنما يريد الإسلام لهذه الحضارات المتعددة أن تتفاعل وتتساند فى كل ما هو مشترك إنسانى عام .

٤ــ وإن كان الإسلام دينا عالمياً فإنه فى جوهر رسالته وحقيقة مبادئه لا يعنى أيضا (المركزية الدينية) التى تريد العالم ديناً واحداً ، فهو ينكر هذه المركزية الدينية عندما يرى فى تعددية الشرائع الدينية سنة من سنن الله فى الإجتماع الدينى لا تبديل لها ولا تحويل (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات)[١]، (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم)[٢]. فهو سبحانه قد خلقهم للتنوع والاختلاف لكنه يريد لكل الملل

---

[١] سورة المائدة الآية ٤٨.

[٢] سورة هود الآيتان ١١٨ــ ١١٩.

والشرائع والديانات وحدة جامعة لتنوعها ورابطة ضابطة لإختلافها ، وحدة فى توحيد الخالق المعبود ، وفى الإيمان بالغيب ، وفى العمل الصالح ، فهذه هى أصول الدين الإلهى الواحد التى أتفقت فيها وعليها كل الشرائع والنبوات وانرسالات من آدم إلى إبراهيم ، إلى موسى ، إلى عيسى ، إلى محمد ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

٥ــ ومبدأ عالمية الرسالة هو مبادئ الإسلام الراسخة وهو الأسس الثابت الذى تقوم علاقة المسلم مع أهل الأديان السماوية ومن هذه المبادئ تنبع رؤية الإسلامي إلى التعامل مع غير المسلمين ، فلا تكتمل عقيدة المسلم إلا إذا آمن بالرسل جميعاً لا يفرق بين أحد منهم، وهذا هو البعد الإنسانى الذى يعطى للتسامح فى الإسلام مساحات واسعة يقول تعالى : (وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان)[١] ، ويقول عز من قائل (إنى رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدى من التوراة)[٢].

٦ــ ولا يجوز أن يفهم هذا التسامح الإنسانى الذى جعله الإسلام أساساً راسخاً لعلاقة المسلم مع غير المسلم ، على أنه إنفلات أو استعداد للذوبان فى أى كيان من الكيانات التى لا تتفق مع جوهر هذا الدين فهذا لا يلغى الفارق والإختلاف ولكنه يؤسس للعلاقات الإنسانية التى يريد الإسلام أن تسود حياة الناس فالتأكيد على الخصوصيات

---

[١] سورة الصف الآية ٦ .

[٢] سورة آل عمران الآية ٤ .

العقائدية والحضارية والثقافية لا سبيل إلى إلغائه ولكن الإسلام لا يريد لهذه الخصوصيات أن تمنع التعارف بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينهما .

٧ـ إن الحقيقة التى لا شك فيها أن الإسلام يؤكد على إعلاء الرابطة الدينية على كل رابطة سواها ، سواء أكانت رابطة نسبية أم إقليمية أم عنصرية أم طبقية فالمسلم أخو المسلم والمسلم أقرب إلى المسلم من أى كافر بدينه يسعى بذمتهم أدناهم ، وهو يد على من سواهم ، وهذا ليس فى الإسلام وحده بل هى طبيعة كل دين وكل عقيدة ، غير التى خلق الحيوان من أجلها ، إذاً المراد كان إيجاد جنس آخر من الخلق خلقه الله بقدرته ليعبد الله على وعى ويعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى ومن أجل هذه الغاية وهب له ما وهب من المزايا وأنزل الكتاب لهدايته على أيدى الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم وكان من أهداف إرسال الرسل وإنزل الكتب أن يقوم الناس بالقسط .

٨ـ ومن ضروب القسط أن يسود التعايش بين الأمم والشعوب ، بالمعنى الراقى للتعايش الذى يقوم على أساس العدل فى المعاملة والمساواة فى العلاقة ، وبهذا المعنى فهم المسلمون القسط فى قوله تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط)[1] . وقد طبق المسلمون القسط على المستوى اللائق

---

[1] سورة الحديد الآية ٢٥ .

بالإنسان سواء فى معاملة من لا يؤمن بالإسلام وبمبادئه أو فى نظافة المجتمع من الفاحشة أو فى الخدمات الإنسانية التى تقدم للناس أو فى التعاون على البر والتقوى ويشهد التاريخ أن معاملة المسلمين لغير المسلمين فى البلاد المفتوحة كان مثالاً رائعاً فى التسامح لا مثيل له فى التاريخ ويتضح مدى نبله بالمقارنة مع وضع الأقليات الإسلامية التى تقع تحت سيطرة اليهود والنصارى والمشركين عامة .

٩ــ ولعل من أكبر الأدلة وأقوى الحجج على قيام الحضارة الإسلامية عبر العصور على أساس متين من التسامح فى أسطع معانيه ، هو تعايش المسلمين مع أهل الديانات والملل والعقائد فى البلدان التى فتحوها خلال هذه القرون المتطاولة ، ولو ذهبنا نستقرى شواهد التاريخ لما استطعنا أن نحصر ــ فى بحث محدود المجال ــ الأمثلة الحية على التعايش الإسلامى العديدة المثال مع أهل الأديان جميعاً ، السماوية منها وغير السماوية فى حين لا نجد أى مظهر من مظاهر التسامح والتعايش فى أدنى مستوياته لدى غير المسلمين .

١٠ــ ولنا أن نقارن بين مشهدين من المشاهد المؤثرة فى التاريخ الإنسانى ، الأول هو دخول الخليفة عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس فاتحاً ، والثانى هو استيلاء القائدين الصليبيين (جودفرى) و(تانكرد) على القدس وتنقل عن المؤرخ (تيلور) ما ورد فى كتابه (عقل القرون الوسطى) عن المشهد الثانى على لسان أحد القساوسة الذين شاهدوا المدينة بعد استيلاء الصليبيين عليها ، وهو القس (ريموند

الأنجيلى) فيقول "وشاهدنا أشياء عجيبة إذ رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم رمياً بالسهام أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق القلاع ، وعذب آخرون أياماً عدة ثم ألقوا فى النيران ، وكانت الطرقات مليئة بأكوام الرؤوس والأيدى والأقدام ، وكان الإنسان أينما ركب جواده وسار يسير بين جثث الخيل والآدميين .

أما المؤرخ (ول ديورانت) فيروى فى موسوعته (قصة الحضارة) عن بعض المعاصرين لهذه الحملة قولهم "إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد وذبح السبعون ألف من المسلمين الذين بقوا فى المدينة .

١١ــ ونحن لا نسوق هذه الشواهد التاريخية ، إلا لنؤكد على أن التسامح فى الإسلام أصل أصيل ، وأن التعايش بين المسلمين من أهل الكتاب ، مبدأ ثابت من المبادئ التى قامت عليها الحضارة الإسلامية ، لا يدفعها إلى ذلك الرغبة فى إنكا الجراح واستحضار مساوئ التاريخ إنما يحفزنا إلى الرجوع إلى صحائف التاريخ المشترك بين المسلمين وبين غيرهم من أهل الأديان والشرائع والملل حرصنا الأكيد على أن نوضح وبقدر ما نستطيع إلى ذلك سبيلاً ، أن التعايش هو قيمة من القيم التى اصطبغت بها الحضارة الإسلامية عبر الأحقاب .

١٢ــ أما ما وقع عند دخول الخليفة عمر ــ رضى الله عنه ــ إلى بيت

المقدس، فهو صورة مشرفة للتسامح الإسلامى الذى رسخ قاعدة التعايش الدينى والحضارى الثقافى فقد دخل عمر بيت المقدس ، فتلقاه البطريرك وطاف معه أرجاء المدينة حتى دخل كنيسة القيامة، فلما حان وقت الصلاة قال للبطريرك "أريد الصلاة" فقال له "صل فى موضعك" ، وكان فى قلب الكنيسة ، فأبى خشية أن يقتدى به المسلمون ، ويقولون هنا صلى عمر ، فصارت الصلاة لنا فى داخلها حقاً ، وقد يؤول بهم الأمر إلى الإستيلاء على الكنيسة مخالفين بذلك ما نص عليه فى العهد العمرى من احترام كنائسهم وتركها بأيديهم على مظنة أن ما فعله عمر بموافقة البطريرك تعديل لما شرط فى العهد ، بل إن عمر خرج وصلى على درج باب الكنيسة ، وبعد أن أنتهى من صلاته ، كتب أمر بأن لا تقام فى هذا المكان صلاة جماعة ، ولا يؤذن فيه مؤذن ، ثم أتى عمر الصخرة فبنى عليها مسجد الصخرة .

١٣ــ وكلما سلفت الإشارة فإن العبرة من رواية هذا الجانب من تاريخ العلاقات الإسلامية ــ المسيحية تمكن من تنوير العقل بحقيقة تاريخية شديدة الوضوح ، وهى أن التسامح فى الإسلام هو عقيدة ثابتة وسلوك أرقى بل هو منهج حياة طبقه المسلمون فى حياتهم الخاصة والعامة ، فكان تعاملهم مع غيرهم من أتباع الديانات الأخرى مثالاً رفيعاً عن نظيره للتعايش ، وهو الأمر الذى يؤكد بما لا يرقى إليه الشك أن المسلمين رواد التعايش وأنهم يملكون ، وفى كل الأحوال استعداداً ذاتياً ليتعايشوا مع من يرغب من أهل الأديان

والشرائع والملل والعقائد فى أن يتعايش معهم ، من دون أن يكون الإستعداد تفريطاً فى خاصية من خصائص هويتهم أو تخلياً عن معتقد من معتقداتهم ، أو تنازلاً عن حق من حقوقهم ، وإنما هو تعايش يخدم أغراضاً إنسانية سامية ، من خلال التفاهم والتعاون والعمل المشترك فى الميادين التى تحقق هذه الأغراض .

روح التسامح عند المسلمين :

هناك أمر آخر لا يدخل فى نطاق الحقوق التى تنظمها القوانين ويلزم به القضاء وتشرف على تنفيذه الحكومات . ذلك هو (روح التسامح) التى تبدو فى حسن المعاشرة ولطف المعاملة ورعاية الجوار وسعة المشاعر الإنسانية من البر والرحمة والإحسان وهى الأمور التى تحتاج إليها الحياة اليومية ، ولا يغنى فيها قانون ولا قضاء .

وروح التسامح لا يكاد يوجد فى غير المجتمع الإسلامى ـ ويتجلى هذا فى قوله تعالى فى شأن الوالدين الذين يحاولان إخراج ابنهما من التوحيد إلى الشرك (وصاحبهما فى الدنيا معروفاً)[١] ، وأيضا قوله تعالى يصف الأبرار من عباد الله الصالحين (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً)[٢]، ولم يكن الأسير حين نزلت الآية إلا من المشركين.

---

[١] سورة لقمان الآية ١٥.

[٢] سورة الإنسان الآية ٨ .

وتتجلى هذه السماحة أيضا فى معاملة الصحابة والتابعين لغير المسلمين ، فعمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يأمر بصرف معاش دائم ليهودى وعياله من بيت مال المسلمين، ثم يقول الله تعالى (إنما الصدقات للفقراء والمساكين)[١].وهذا من مساكين أهل الكتاب ويمر فى رحلته إلى الشام بقوم مجزومين من النصارى فيأمر بمساعدة إجتماعية لهم من بيت مال المسلمين .

أساس التسامح عند المسلمين :

ترجع النظرة المتسامحة التى تسود المسلمين فى معاملة غير المسلمين إلى الأمور التالية :

١ــ اعتقاد كل مسلم بكرامة الإنسان أيا كان دينه أو جنسه أو لونه (لقد كرمنا بنى آدم)[٢] .

٢ــ ألا نعبد إلا الله .

٣ــ ولا نشرك به شيئاً .

٤ــ ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .

فهذه الآية هى القاعدة الذهبية للتعايش بين الأديان ، لأنها تدعو إلى إفراد الله بالعبودية ، وإلى عدم الشرك به ، وإلى رفض الطغيان والجبروت والكبرياء وفرض الهيمنة ، وذلك بأن يتخذ الناس بعضهم

---

[١] سورة التوبة الآية ٦٠.

[٢] سورة الإسراء الآية ٧٠.

بعضاً أرباباً من دون الله ، يستوحون منهم التعالم والمبادئ أو يخشونهم، أو يخضعون لما يملكونه من قوة باطشة ، مما يؤدى إلى خلل فى الكيان الإنسان ، وإلى الفوضى فى العالم فليكن التعايش بين الأديان إذن من أجل الله وحده لا شريك له ، ومن أجل الإنسانية الحرة الكريمة فى ظل الإيمان والخير والفضيلة وما فيه مصلحة الإنسان فى البدء والختام .